مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية — شوال ١٤٠١
مجلد الرابع ـ العدد الثاني من ١١ الى ٢٠ — آب ١٩٨١

# المدرسة الوظيفية أو علم اللغة حسب مارتينه .

الدكتور نجيب غزاوي
كلية الآداب

يقدم هذا البحث دراسة عن احدى المدارس اللغوية المعاصرة من خلال المفاهيم التي ادخلها وحللها وطورها احد مؤسسيها اندرة مارتينة . فنعرض تفصيلا ومن خلال منظور وظيفي :

- تعريف اللغة
- تعريف علم اللغة
- سمات اللغة
- بعض المفاهيم التي فندها ودحضها علم اللغة الوظيفي .

يعتبر اندره مارتينيه احد كبار علماء اللغة المعاصرين واحد موءسسي مدرسة براغ لعلم اللغة التي نشطت في الفترة الواقعة بين عام ١٩٢٦ والحرب العالمية الثانية ورفعت اعلام اتجاه جديد في علم اللغة عرف بالوظيفية (١)

ولد مارتينه عام ١٩٠٨ في منطقة السافو في فرنسا واحتك منذ نعومة اظفاره بظاهرة الثنائية اللغوية (٢) التي شكلت فيما بعد محور اهتماماته . درس في السوربون وحصل على شهادة الاغريقاسيون في اللغة الانكليزية وتابع دروس فردناند موسي ، وفندريس (٣) ، حول اللغة الجرمانية ،كما تابع محاضرات انطوان مبي (٤) في الكوليج دو فرانس وحصل على الدكتوراة عام ١٩٣٨ واصبح بعدها مديرا للدراسات الفونولوجية في المدرسة العملية للدراسات العليا .

ومن المفارقات الغريبة ان مارتينيه قد اقتيد اسيرا الى احد معسكرات اعتقال الضباط حيث استفاد من وجود ضباط معتقلين من مختلف انحاء فرنسا ( ٤٠٩ ضباط ) ليقوم ببحث يعتبر فريدا من نوعه في الوصف الفونولوجي للغة الفرنسية المعاصرة .

---

(١) تعتبر هذه المدرسة اللغة نظاما ذا وظيفة وغاية هي التعبير والاتصال من خلال وسائل مناسبة . وقد اهتمت باللغة المعاصرة باعتبارها مادة متكاملة يمكن دراستها بشكل مباشر . ركزت هذه المدرسة اهتمامهافي البداية على الفونولوجيا فيما وسع مارتينه هذه الاجتماعات لتشمل النحووكل مظاهر اللغة .

(٢) le bilinguisme

(٣)٤) من كبار علماء اللغة الاجتماعيين

ولقد اتصل بين عامي ١٩٣٢ - ١٩٣٨ بموسسي مدرسة براغ لعلم اللغة ، وخصوصا تروبتزكوى[١] كما قام في الدانمارك واحتك بهيلميسلين وتابع تطورات مذهبه اللغوى المعروف بالغلوسيماتيك[٢]

يغادر مارتينيه فرنسا الى الولايات المتحدة عام ١٩٤٦ حيث يطلع على علم اللغة هناك ، وعلى اعمال سابير وبلومفيلد خاصة ويدير .

ومنذ عام ١٩٤٦ المجلة الناطقة بلسان علم اللغة هناك وحتى عام ١٩٦٠ . يعود مارتينيه الى فرنسا عام ١٩٥٥ حيث يتابع تدريس علم اللغة العام في السوربون . وهو يدير حتى يومنا هذا مجلة " علم اللغة " التي تاسست عام ١٩٥٥ لتنشر وجهات نظر علم اللغة البنيوى .

نشر مارتينيه حوالي ٢٧٠ مطبوعة بين كتاب ومقاله نذكر منها :

| | |
|---|---|
| - ( لفظ اللغة الفرنسيه المعاصرة ) | La prononciation du francais contemporain |
| -(علم اللغة الوصفي) | La linguistique synchronique |
| - الفرنسية بلازينه ) | le francais sans fard |
| - اللغة والوظيفة ) | Langue et fonction |
| - عناصر في علم اللغة العام) | Elements de linguistique generale |

(١) و(٢) انظر كتاب " علم اللغة في القرن العشرين " لجورج مونان منشورات وزارة التعليم العالي

ـ بحث في علم الصوت التاريخي )  Traite de phonetique diachronique

ـ ا قتصاد التغييرات الصوتيـة )  Economie des changements phonetiques

يتميـز اتدره مارتينيـه بالانفتاح الفكرى على كل النظريـات المعاصرة ومعرفته العميقة بها فيما خلا القواعد التوليديـة التحويلية . كما يتميز بالوضوح الفكرى والموضوعية والتجـرد والبعد عن كل اشكال الغموض الاصطلاحي . فهو يرى انه لا يكفي ان نسرد الوقائع بل لا بد من تفسيرها . وهو يقف بذلك في صـف البينوية التفسيرَية ضد البينوية الوصفية فهو يقول ليس مهما ان نسمي الوقائع بل ان نلاحظهـا ونفسر مجراها بشكل صحيح .

يعرف مارتينيه علم اللغة بانـه الدراسة العلمية للغة البشرية اثنا؛ عملها باعتبارها وسيلة اتصال . ويقصد بالعلميـة الدراسة القائمـة على الملاحظة والتي ترفض اختيار الوقائـع ودراستها على اسس جمالية او اخلاقية وهو يرى ان الصفة العلميـة تتناقض مع التقريرية . ويلح كثيرا على هذه المسالة ،في علـم اللغة بالذات ،بسبب ارتباط موضوع هذا العلم بفعالية بشريـة حيث خطر البعد عن الملاحظة الموضوعية والاغراق في اقرار ما يجب ان يكون كبير جدا . وهو يؤكد ان صعوبة تحرير علم اللغة مـن القواعد المعيارية (١) تعادل صعوبة تحرير علم الاخلاق من الاخلاق نفسهـا .

ولكن ما اللغة التي تشكل موضوع هذا العلم ؟ انها وسيلة اتصال تمكن الانسان من نقل تجربته الى امثاله من البشر (٢) وتحلـل التجربة الانسانية بطريقة مختلفة لدى كل جماعة انسانية الـى وحدات تحمل معنى وتعبيرا صوتيا وتعرف هذه الوحدات بالمونيمات

(١) normatif

(٢) ان تطور اللغة يرتبط اساسا بعملية التكيف مع الحاجات المستجدة للاتصال ضمن الجماعة اللغوية

كما يحلل التعبير الصوتي بدوره الى وحدات ذات قيمة تميزية متتابعة تعرف بالفونيمات [1]، وهي محدودة العدد في لغة من اللغات على عكس المونيمات .

وتظهر اللغة في صيغ مختلفة "فلكل شعب لغة التي تحمل خصائص مشتركة مع بقية لغات الشعوب الاخرى ويستنبط مفهوم اللغة العام هذا من خلال دراسة اللغات المختلفة . ولا بد من التنويه هنا الى ان هناك عددا من الصعوبات تقف في وجه تحديد معنى اللغة بدقة اذ لم تدرس كل لغات العالم دراسة جيدة ،كما ان هناك لغات زالت ولم تترك اى اثر ،كما يمكن ان تظهر لغات يتحدث الناس بواسطتها مستقبلا . كل هذا يجعل عملية تحديد معنى اللغة صعبة بيد ان مارتينيه والوظفيين معه كانوا قد توصلوا الى تحديد عام لسمات اللغة البشرية نورده فيما يلي :

ا- السمة الصوتية :

يشير الوظيفيون الى ان استعمال كلمة " لغة " قد درج - كثيرا خارج نطاق الانسان ،كأن نقول لغة الحيوان ،لغة الورود . وتلك استعمالات مجازية ليس الا ،وهي من نسج خيال الشعراء وكتاب قصص الحيوان . فاللغة كما اشرنا منذ قليل تشير الى قدرة الانسان على التفاهم من خلال الرموز الصوتية وعلى هذا الاساس لا بد من التأكيد على السمة الصوتية للكلام البشرى ،صحيح انه ،وحتى فترة قريبة ،قد اقتصر الاهتمام على لغة الكتاب وحدها ، وهذا امر طبيعي فهي اللغة التي تبقى وتنتقل عبر الاجيال كما انها لغة الادب - والتراث ،فيما لغة الكلام تزول وتتلاشى [2] غير انه لا يجوز ان ينسينا هذا الامر ان رموز اللغة كانت ، ولفترة طويلة من الزمن صوتية محضة وان البشر في غالبيتهم العظمى يمارسون الكلام دون معرفة الكتابة وان الانسان انما يبدأ بالكلام ثم يتعلم الكتاب وان القراءة تعقب الكلام .

---

(١) سنعود الى شرح هذين المفهومين فيما بعد

(٢) قبل تطور التكنولوجيا طبعا واختراع اجهزة التسجيل ذات - التقنية العالية جدا .

- سمـــة التسلســـل :

ترتبط هذه السمة بسابقتها اذ تظهر اللغة على شكل تسلسل خطي للجمل . فالتعبير الصوتي يحدث خلال الزمان ويتلقاه السمع على شكل تتابع . والامر يختلف بالنسبة لاتصال من نوع تصويري تتلقاه العين . ففي حين يبدع الرسام لوحته بشكل تتابعي ،تتلقاها العين لكل متكامل كما ان نظام اشارات الطرق لا يعتبرتسلسليا. فهو ذو بعدين ( طول وعرض ) ان تسلسلية اللغة ذات قيمة تمييزية فتسلسل الفونيمات[1] مثلا هو اساس في الفهم والتمييز بين كلمات من اللغة واخرى ليست منها في شيء .

فكلمة رجل من اللغة ر فيما التسلسل الاخرللفونيمات

ر ، ج ،ل كما هي الحال في جرل لرج

غير مقبـــول ولا يحمـل اى معنى في اللغة العربيـة .

٣- سمـة التمفصل المضاعـــف :

ان سمـــة التمفصل المضاعف في احدى السمات التي تميز كـــل اللغات اطلاقا وهي تظهر على مستويين .

ا ) التمفصل الاول : وهو التمفصل الذى تخلل من خلاله كـــل واقعة منقولـة بواسطة اللغة الى تتابع وحدات ذات شكل صوتـــي ومعنى او دلاله . فاذا انا تألمت يمكن ان اعبر عن المي بواسطة الصراخ ، او التاوه ،غير ان الصراخ والتاوه لا يمكن ان يحلـــلا كما يمكنني ان الفظ جملـة في الموقف ذاته كان يقول :ساقي توألمني ونحن هنا بصدد اربع وحدات صوتية يمكن ان نجدها في سياقـــات اخرى

ســـاق الرجل مبتـــورة

راسي قدمـي ، معدتي

---

(١) الفونيـم : هو الوحدة الصوتية الدنيا التي لا تحمل معنى - وتميز بين كلمتين مثل فونيمان في اللغة العربية فاس كاس فالفاء والكاف

ويسمى مارتينه الوحدات الناتجة عن التمفصل الاول ( ساق + ى ، توءلمن + ى ) مونيمات ، فالمونيم وحده صوتية موءلفة من شكل ومضمون ، من دال ومدلول ، ولا بد من الاشارة هنا الى ان مفهوم المونيم لا يتطابق مع مفهوم الكلمة ، اذ يمكننا ان نكتشف في كلمة واحدة اكثر من مونيم كما في :

ساق + ى

توءلمن + ى

ليس للمونيم مكان ثابت في النص عموما سواء اكان ذلك في اللغات المعربة وغير المعربة : اذ نستطيع القول :

زيد ضرب عمرو

عمرو ضرب زيدا

ضرب زيد عمرو

في العربية ،كما نستطيع القول :

Celui que je vois est paul

Paul est celui que je vois

وتقسم المونيمات الى ثلاثة انواع : من وجهة نظر النحو :

- المونيمات المستقلة اى تلك التي لا يحدد وظيفتها مكانها في النص او اية اداه اعرابية اخرى كما في حال الظروف :

اكلت تينا صباحا

صباحا ، اكلت تينا

اكلت ، صباحا ، تينا

- المونيمات غير المستقلة : وهي تلك التي يحدد وظيفتها موقعها في النص . وينطبق هذا الامر على اللغات غير المعربة خاصة مثل:

Le garcon a tue le renard

Le renard a tue le garcon (1)

فموقع Le renard , Le garcon في الجملة يحدد وظيفة هذين المونيمين . ففي الجملة الاولى le garcon

(١) قتل الولد الثعلب
قتل الثعلب الولد

Le renard

فاعـــل مفعول بـــه .

- المونيمات : الوظيفيـة : اى تلك التي تستخدم لادخال وظائـف جديدة في الجملة مثل ادوات الوصل ،احرف الجر : فبعد اســـم الموصول هناك جملة صلـة الموصول وبعد حرف الجر هناك الاســم المجرور . ونضرب على ذلك امثلـة من اللغة الفرنسية ،فحـروف الجر فيهـا تدخل العديد من الوظائف الظرفية :

travaille pour sa famille وظيفة الهدف الظرفية pour

marche dans ta coue وظيفة المكان الظرفية

Marie parle a Paul وظيفة المفعول غيرالمباشر

ب - التمفصل الثانـــي :

ويحلل نتاج التمفصل الاول اى المونيم الى عناصر اصغر تملـك شكـلا دون ان تملك معنى ، فكلمة رجل " مثلا تشير الى ذلك المفهوم الذى يدل على كائن حي معروف، غير اننا لا يمكن ان ننسب الـى: ر ، ج ، ل معـان " متميزة يكون مجموعها مفهوم ( رجل ) . ومع ذلك فان الشكل الصوتي يحلل الى تتابع وحدات ذات شكل فقط وتسهم كل وحده من هذه الوحدات .

في تمييز المونيم ( رجل ) عن غيره من المونيمات مثل : رجل ، حجل ،رحل ، اجل ، ويطلق الوظيفيون على هذه الوحدات اسم الفونيمات ويتميز سلوك الفونيمات بانه يمارس وظيفة التمييزية من خـــلال موقع ثابت في النص . فلا يكفي مثلا في ملمة mare من الفرنسية ان نقول انها موءلفة من الفونيمات M A , R فهي تشترك في ذلك مع Rame Arme لابد اذن من القـــول انها تتالف من ثلاثة فونيمات ،ذات تسلسل محدد وهذا يعني ان النطق بـ Mare يستوجب اختيار M اولا ثم A ثـم R وتلك نقطة اختلاف مع سلوك المونيم النحوى

فهو لا يخضع لمثل هذا القيد كما اوردنا ذلك سابقا [1]

انتقدت المدرسه الوظيفية الكثير من المفاهيم اللغوية المغلوطة ودحضتها نذكر منها مفهوما يرى في اللغة مجموعة من المصطلحات يدل كل منها على شيء موجود في الواقع ، حيوان ما : الحصان مثلا : فاللغة العربية تستخدم النتاج الصوتي المحدد الذى يمثله في الكتابة الشكل " حصان " للدلالة على - هذا الحيوان المعروف وعلى هذا الاساس ،المرفوض قطعا ،تشير الفروق بين اللغات الى فروق في التسميات فقط ( حصان ) في العربية ( Horse ) في الانكليزية ( Pferd ) في الالمانية ،( ( Cheval ) في الفرنسية الخ.. ويترتب على هذا المنحى في التفكير ان تعلم لغة اجنبية يعني حفظ مصطلحات جديدة- موازية لمصطلحات اللغة الام ومتطابقة معها . وتتكون هذه المصطلحات في كل اللغات في الاصوات نفسها . ويكون الاختلاف في اختيار هذه الاصوات وترتيبها وتستند هذه الروءية للغة الى مقوله ترى بان العالم مقسم ، بشكل مسبق لروءية الناس له ،الى اصناف متميزة تتلقى تسمياتها في كل لغة ،وان اللغة لا تتدخل في ترتيب هذا العالم في شيء ! لقد رفضت المدرسة الوظيفية هذه المقولة من اجل تبني مقولة اخرى تقتضي باننا نرى العالم من خلال بنى لغتنا وبتعبير اخر ، ان اللغة هي التي تنظم العالم وتنتفي على هذا الاساس ،فكرة التطابق بين مصطلحات اللغات المختلفة فاذا كان التطابق صحيحا في مجالات معينة ( اصناف الكائنات الحية مثلا ...) فهو غير صحيح في مجالات اخرى : تقسيم السطوح المائية الى بحر ، بحيره ، محيط ، نهر ، نهير ،نبع ،ساقية ( فهناك البحر الميت ، وهناك البحيرة العظمى .. ) ويعتبر الوظيفيون ان كل اللغة تقدم تنظيما خاصا عن الواقع وان تعلم لغة اخرى لا يعنى ان نستوعب مجموعة مفردات جديدة بل ان نتعود على تحليل مختلف للواقع ونوضح هذا القول بالمثل التالي:

---

(1) فيما يقف مارتينه عند الفونيم باعتباره الوحدة اللغوية الدنيا التي لا تقبل التحليل،يذهب جاكوسيون احد ممثلي المدرسة الوظيفية في الولايات المتحدة الى ابعد من ذلك ويصل به التحليل الى ما يعرف بالحزم فكل فونيم يحلل بدوره الى مجموعة من الصفات الصوتية ويسميها جاكسيون الصفات التميزية مثل الصفه الاخلاقية والخلقية والمهتوفة ... فالمونيم انما يتالف من حزم الصفات وليس من الفونيمات حسب رايه

تستعمل اللغة الفرنسية كلمه bois للدلالة على :

- الغاب
- الخشب
- خشب البناء ( السقف )
- خشب التدفئة

فيما تستعمل اللغة الدانماركية troe للدلالة على الشجر والخشب :

و Tommer للدلالة على خشب البناء

و Skoo للدلالة على الغابة

و leroende للدلالة على خشب التدفئة

فنحن هنا بصدد تنظيمين مختلفين للعالم نستطيع تسميتهما عالم اللغة الفرنسية وعالم اللغة الدانماركية .

وبعد ، فقد عرضنا في بحثنا هذا الخطوط العريضة للتطوير الذى ادخله اندره مارتينه على علم اللغة الوظيفي . ففيما اهتمت مدرسة براغ ،في بدايتها بالتحليل الفونولوجي والفونيم ،طور مارتينه طرائق الدراسة الوظيفية للغة تشمل : بنيتها وعملها ومكوناتها الاساسية وادخل مفاهيم جديدة مررنا على ذكرها التمفصل المضاعف ،السمه الصوتية ...